مفهوم الدولة لدى مكيافلي أو القطع مع الكنيسة

Machiavelli's concept of the state or the break with the Church

علامي خالد المسعود
جامعة عبد الحميد بن باديس. مستغانم (الجزائر)
alami.philosophie@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/04/29 تاريخ القبول: 2021/05/31 تاريخ النشر: 2021/08/01

ملخص:

خلف مكيافيلي مؤلفات كثيرة يأتي على رأسها مؤلفه الشهير "الأمير" وكتب أخرى مثل "المطارحات" و" المخاطبات" وكتاب "فنون الحرب" وقد شهد مكيافيلي وعايش أهم التحولات الكبيرة في عصر النهضة بل كان مساهما في بعضها حيث فقه ماكيافيلي واستوعب الكثير من ذلك الفضاء المتنوع المفعم بالثورة والتغيير الذي ميز عصر النهضة.

الكلمات المفتاحية:

الدولة، الحكم، الأمير، المستبد، النهضة.

Abstract

Behind Machiavelli is many works, on top of which is his famous book "The Prince" and other books such as "Al-Mutatahath", "Addresses" and "Arts of War." The variety imbued with revolution and change that characterized the Renaissance.

key words:

The state, the rule, the prince, the despot, the renaissance.

المنارة للاستشارات
ww

1- مقدمة:

عاصر "ماكيافيلي" الأمير "الميدنشي لورنزوا" وهو العصر الموسوم في التاريخ الإيطالي بالعصر الذهبي العصر الذي استطاع أن يحدث توازنا بين القوى الخمسة في المدن الإيطاليةوينتمي ماكيافيلي إلى أسرة تعادي عائلة ميدنتشي على الرغم من حرص المدنتشيين على حد أدنى من تعاليم الجمهورية حيث كان هذا الأمر لا حدثا بالنسبة لطموحات ماكيافيلي. عقب وفاة "لورنزوا" تعاقبت حكومات كثيرة على فلورونسا ما بين حكومة جمهورية وأخرى دينية حينها كان ماكيافيلي قد تقلب بين عدة مناصب من أمين سر القنصلية في مدينته إلى سكرتيرا للمستشارية الثانية لفلورنسا. بينما لم يكن الأمر صدفة أن يعتقل عشية عودة الأسرة الميدنتشية للحكم حيث عذب نظرا لنشاطه السياسي ، عاش بعدها في المنفى ردحا من الزمن حيث عانى العوز والفقر أعيد لمنصبه بعد ذلك عقب مغازلته للسلطة غير أنه لم يلبث أن يبعد مرة أخرى.

2- السياسة الو اقعية :

أمام التفتت الذي كان يميز إيطاليا يومها كان ماكيافيلي يتصور أن أولى الأولويات التي يجب أن ينشغل بها الإيطاليون هي العمل على توحيد المدن الإيطالية كقوة عسكرية واقتصادية بغية تحقيق الدولة الأمة ،حيث يؤكد على ضرورة الإسراع في انجاز هذه الوحدة، فيكون على رأس الدولة أمير يحقق ،ويؤمن لها هذه القوة .هذه الفكرة بالذات هي التي صنعت منه فيلسوف السياسة الأول بامتياز لأنه حاول أن يستوعب السياسة كما هي في الواقع، وليس كما ينبغي أن تكون، "ولقد حقق ميكيافيلي أقصى قدر من الواقعية في عرض آرائه السياسية دون خشية الاتهام بأي تهم تلحق به من جراء هذه الجرأة الشديدة وتلك الشجاعة التي تحلى بها في عرض تلك الآراء وكان من أهم الموضوعات التي تعرض لها صفات الحاكم أو الأمير في رأي ميكيافيلي أن جميع الناس ترى أن يتمتع الأمير بكل الصفات الخيرية والطيبة إذ يجب أن يكون كريما متحررا رحيما وفيا بعهوده شجاعا طاهرا صريحا متدينا ولما كان المستحيل أن يكون الأمير متمتعا بكل الصفات جميعها لأن الأوضاع الإنسانية لا تسمح بذلك فإن من الضروري –في رأيه-أن يكون الأمير متميزا بالفطنة بحيث يتجنب الفضائح التي قد تؤدي به إلى ضياع دولته."[1]، وهي الواقعية السياسية التي جعلت المؤرخين يتوجون مكيافيلي أبا للسياسة الحديثة ذلك أنه لا ينطلق على غرار العصور الوسطى من فكرة الخطيئة الأولى ،بل ينطلق من واقع التوحش الذي يؤطر سلوك العاملين بالسياسة

[1]–مصطفى النشار:أعلام الفلسفة،حياتهم ومذاهبهم،دارالميسرة للنشر والتوزيع والطباعة،ط1،2011،ص186.

المنارة للاستشارات
ww

وشؤونها، "لقد رفض مكيافيلي النظرة اللاهوتية التي كانت سائدة في العصور الوسطى والتي تربط الدولة بالكنيسة باعتبارها سلطة عليا وأكد على ضرورة قيام دولة علمانية دولة دنيوية لا تكون مبرراتها النهائية هي الإدارة الإلهية وإنما القوة ورفض الأخلاق المسيحية التي تكرس التواضع وقبول المعاناة والاستسلام والتضحية بالذات ورجاء الخلاص في الآخرة. وخلق صورة جديدة للوثنية القديمة التي تمجد القوة والشجاعة والاستقلال والطموح وتوكيد الذات.[2] من جهة أخرى يزهد مكيافيلي كثيرا في شأن العامة ويقلل من تأثيرها حيث يصنف عموم الشعب بالنفعيين والشرهين و التهميين في رغباتهم والساخطين دوما والجاحدين والمتقلبين والخائفين والجبناء، حيث يسهل التأثير عليهم والحال هذه، باستعمال التخويف والعقاب فكل شيء متوقف على النجاح بصرف النظر على الوسائل الموصلة إلى النجاح ،وعليه فما يصبوا إليه الأمير أساسا هو الذود عن الدولة بكل الطرق، ذلك أن العامي لا يحكم إلا على ما يرى و مايجري ، يبدوا أن مكيافيلي في مستوى آخر يسعى إلى استنساخ تجربة أمجاد الإمبراطورية الرومانية من خلال قوة وهيمنة النظام الجمهوري ،فيستخلص من تلك التجربة قيام الدولة على مبدأين اثنين هما: القوة والحيلة. و تعني الأولى حرص الدولة باستمرار على امتلاك القوة الكافية والأسلحة النوعية حتى تكون على استعداد دائم لشن الحرب، لأنها المهمة المركزية لكل حاكم "ويؤكد مكيافيلي نظريته في القوة بالتأكيد على الأمراء بأن لا ينشغلوا مطلقا عن تعضيد قواتهم وتعضيد جيوشهم الخاصة والمداومة عن التدريب والإكثار من دراسة التطوير لهذه القوات ولأسلحتها في أوقات السلم بجدية أكثر منها في أوقات الحرب لأن فقدان الإمارة مرتبط دائما(...)بانشغال الأمراء بالترف والرخاء من انشغالهم وتفكيرهم بتطوير السلام وأمر الجيوش وكأن مكيافيلي يكرر نظرية ابن خلدون في العصبة فرغم اختلاف منطلقاتها ومصطلحاتها إلا أن كليهما يرى في القوة سر قيام الدولة والحفاظ عليها ويرى أن الانشغال بالترف سر انهيارها."[3] في حين تكمن الثانية في الحيلة والغش في الحياة الخاصة، وحتى لوكان هذا الأمر مكروها فهو في الحرب وفي مواجهة العدو، مستساغا ومطلوبا مادام الهدف الاستراتيجي هو الحفاظ على كيان الدولة "ويلخص مكيافيلي رأيه في هذه القضية بقوله:« فمن الخيرأن تتظاهر بالرحمة وحفظ الوعد والشعور الإنساني النبيل والأخلاقي والتدين وأن تكون فعلا متصفا بها ولكن عليك أن تعد نفسك ندما تقضي الضرورة لتكون منصفا بعكسها ويجب أن يفهم أن الأمير لا يستطيع أن يتمسك بجميع هذه الأمور التي تبدوا خيرة في نظر الناس إذ أنه سيجد نفسه مضطرا للحفاظ على دولته لأن يعمل خلافا للإخلاص للعهود وللرأفة والإنسانية و الدين، ولذا فإن من واجبه أن يجعل عقله مستعدا للتكيف مع الرياح ووفقا لما تمليه

[2]–د.فيصل عباس:الموسوعة الفلسفية ،الفلسفة الحديثة عصر النهضة،ج5،مركز الشرق الأوسط الثقافي،ط1،2011،ص41.

[3]––مصطفى النشار:أعلام الفلسفة،حياتهم ومذاهبهم، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة،ط1،2011،ص185.

المنارة للاستشارات
ww

اختلافات الظروف"[4] بل الحيلة كما يدل مكيافيلي لا تقتصر على الحروب بل هي مطلوبة حتى في السلم لاسيما في إبرام المعاهدات وتطبيقها إذا كانت تقتضيه مصلحة الدولة، فعلى الحاكم أن يتحلى بالمكر إذا تناقضت هذه المعاهدات مع أهدافه ، فحسبه لا طبيعة البشر بريئة في كل الأحوال ولا الحاكم ملزم بالوفاء في تسيير الشأن العام ،وفي كل الأحوال يبقى الأمر متوقفا على قدرة الأمير وكفاءته في إدارة شؤون دولته.

3- وظائف الأمير وصفاته:

لقد امتد تأثير كتاب الأمير لعهود كثيرة لاسيما على سياسة عصر النهضة والحقبة الحديثة عموما وربما ألقى بضلاله على واقعنا اليوم بالخصوص ممارسات سياسات القرن20مع الأنظمة التوتاليتارية، يحتوى هذا المؤلف على كثير من الموضوعات وطبيعة الحكومات و أنواعها، حال الدولة المحتلة والمستقلة وصفات الأمير ووظائفه. أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها الأمير في نظر مكيافيليمايلي: لا يجب أن يهتم بأمر اهتمامه بالبخل وبالقسوة إذا كان الهدف منها توحيد دولته ورعاياه والحفاظ على ولائهم له كما لا يعتبر الأمر ملزما بالإيفاء بعهوده ومواثيقه لأن المكر والادعاء هو الوسيلة الوحيدة في أحيان كثيرة لتحقيق الأمور العظيمة لصالح الأمير والدولة وأن لا يكتفي الأمير بتطبيق القانون فحسب بل يعتمد القوة والقتال كذلك خصوصا لما يكون القانون عاجزا عن تحقيق أهداف الدولة وأن يتفادى ما يطعن في سمعته ويتطلع إلى الشهرة بمختلف الوسائل كإنجازه للمشاريع العظيمة وركوبه المغامرات العسكرية والترغيب والترهيب. وأن يشغل شعبه بالأعياد والمناسبات وأن يكون مستعدا لتقبل النصيحة على الوجه الذي يحدده هو وأن يحيط نفسه بمجموعة من القوات الخاصة الوفية والأمنية حتى تحقق له العظمة المطلوبة. "يجب على الأمير أن يعنى بسمعته . فحصنها لا يمنع محبة شعوبه هكذا يعترف مكيافيلي بقوة الرأي العام .ولكن ذلك كي ينشئ نظرية لاستخدام هذا الرأي الذي يعلم بأنه قابل للتكيف وحساس بالقوة وسهل على الخداع وبالتالي يصبح المكر بالنسبة للأمير واجبا(...)فإذا نجح الأمير في أن يحفظ حياته وأن يصون دولته فإن جميع الوسائل التي يكون قد توسل بها يحكم عليها بأنها مشرفة[5]" .

---

[4]–مصطفى النشار:أعلام الفلسفة،حياتهم ومذاهبهم، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة،ط1،2011،ص188.

[5]–جان توشار:تاريخ الأفكار السياسية(من عصر النهضة إلى عصر الأنوار)ج2،ت،نادي الدراوشة،دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر،ط1،2010،ص354.

المنارة للاستشارات
ww

3- نظم الحكم:

يحصر مكيافيلي الممالك والحكومات والتي حكمت الجنس البشري في شكلين اثنين جمهوري أو ملكي، فعندما يختزل الحكم رجل واحد نكون أمام حكم ملكي أما إذا كان موزعا على جماعة فهذا حكم جمهوري ، والملكية بدورها شكلان وراثية ومختلطة ناشئة فالأولى يتواتر فيها الحكم بالميراث لعقد طويل بينما الثانية هي الملكيات الجديدة العهد والنشوء. لم يخفِ مكيافيلي تأثره بنظام الحكم الجمهوري الروماني وهذا بجانب اقتناعه بالنظام الاستبدادي، غير أنه كان يفضل الحكم الديمقراطي بالدرجة الأولى لكن في مجتمع متنور يتحلى بالأخلاق الفاضلة في وضع سياسي مستقر ،وإلا فالحكم المطلق أصلح إذا غابت هذه الظروف ،في هذا السياق يدعو مكيافيلي إلى استبعاد الطبقة الأرستقراطية كضمان لاستقرار الحكم. "وقد وضع مكيافيلي قواعد للحكومة الناجحة منها: تأسيس مؤسسة عسكرية قوية لحماية المواطنين ضد العدو الخارجي وحماية حياة و ممتلكات وأسرة وشرف كل مواطن من العدوان(...)وتشجيع الازدهار الاقتصادي ومنع إفراط الأفراد في الثراء وتنظيم الترف في سلم المناصب في الدولة يجب أن يكون لأولئك الساعين إلى المجد والشرف والدولة المثلى هي التي تكون المراتب فيها على حسب الكفاءة والقدرة."[6]
غير أننا يجب أن نميز هنا بين رصد مكيافيلي لواقع النظم السياسية في مختلف الدول بين ملكي وجمهوري والنظام الذي يميل إليه هو وهو الديمقراطي وبين ما تقتضيه الظروف السياسية والاجتماعية من كمّ استبدادي مطلق بمعنى وفي تصور مكيافيلي دائما أن المجتمع إذا استمرت أوضاعه في الانحلال والانحطاط والانقسام فلا مفر له من اللجوء إلى الكمّ الاستبدادي المطلق مكرها.

4- الأخلاق والسياسة والقطيعة مع الدين:

يقف مكيافيلي من المسيحية موقفا صارما فيدعوا إلى التخلص منها ومن كل مخرجاتها الأخلاقية الشخصية البنيوية ،غير أنه يرى أنه يجب أن يكون للدين مكانا متميزا في الدولة ليس لمصداقيته بل كدعامة اجتماعية بينما أعطى مكيافيلي الحق للرومان الحق في ادعائهم الاعتقاد في العرفات وفي إنزالهم العقوبات بالمستخفين بهم أما في شأن الكنيسة فقد تحفظ مكيافيلي على فقرتين؛ الأولى الكنيسة بسلوكها السيء قد ضيعت الكنيسة والثانية تلاعب الكنيسة بالسلطة الزمنية يعتبر السبب الرئيسي وراء عدم توحد ايطاليا "وإذا كان مكيافيلي بشّر بالدولة القوية فذلك يعود إلى الإيمان القوي بأن الدولة العلمانية الجديدة يمكن أن تصبح مصدرا للدين والأخلاق شرط أن يسخر الدين لتوطيد أركان الدولة

[6]–د.عبد الرحمن بدوي،موسوعة الفلسفة ،ج2،المؤسسة العربية الدراسات والنشر بيروت،ط1،1984،ص466.

المنارة للاستشارات
ww

وإعادة شأنها وأن تتحول الأخلاق إلى مذهب أخلاقي يمجد القوة والسلطة والعظمة بهذا الموقف الهادي(...)اعتبرت الكنيسة أعمال مكيافيلي لا أخلاقية وأدانتها ومع ذلك كان تأثيره الأكثر على نتشه في قالتاسع عشر19م"[7] . في الشأن الأخلاقي يعلن صراحة في كتابه الشهير "الأمير" عن ضرورة التخلي عن الأخلاق القائمة وتقاليدها بل يذهب بعيدا في هذا السياق ،عندما يقرر صفات الغدر والقسوة والحيلة وغيرها أما الفضائل التي يحافظ عليها ماكيافيلي ويعتبرها الأساس هي الفضائل السياسية من قبيل الاستقلال القومي والأمن والدستور المرتب بأفضل الصور حيث يضطلع هذا الأخير بتوزيع الحقوق المشروعة بين الأمير والنبلاء والشعب لأن الحكم الذي يشارك فيه الجميع هو الضمان الأساسي لديمومة الدستور .ومع ماكيافيلي تظهر النقلة النوعية في الممارسة السياسية والتي تبرز في مجالين اثنين هما القطيعة مع الدين وهيمنته وقلب المعادلة بجعل الكنيسة هي الخاضعة للدولة وليس العكس. وهكذا تأخذ السياسة مع مكيافيلي دلالة جديدة على مستوى تقنية الحكم وآلياته وكيفية المحافظة عليه "عُني مكيافيلي بالسياسة عمليا ونظريا وكانت نظراته السياسية تتركز حول كيفية الحصول على السلطة (الحكم)والمحافظة عليها ولما كان هذا هو الهدف فلا محل للاعتبارات الأخلاقية إن الغرض هو النجاح السياسي فلا على طالبه بعد ذلك من انتهاك القواعد الأخلاقية والاعتبارات الإنسانية."[8] فتنحصر دلالتها في مفهوم القوة فحسب "وقد اعتبر مكيافيلي أن معيار قوة الدولة هو قوة تحصيناتها وقوة حكامها إلى جونب تمتعه بحب شعبه (...)إذ لا يمكن لأي إنسان أن يهاجم تبعا لذلك الأمير الذي يملك مدينة منيعة والذي لا يعرض نفسه لكراهية رعاياه(...)إلا أنه يعتقد أن أي شيء في الدولة مستمد من قوتها فالقوة هي المحور الأساسي التي تدور حوله نظرياته السياسية العملية."[9] وفي هذا السياق لا يكتفي مكيافيلي بعلمنة الدولة بل وكذلك الدين ،هكذا قد أحدث مكيافيلي القطيعة مع الفكر الميتافيزيقي ،في نظرته للممارسة السياسية معتمدا رؤية عقلانية تشق طريقها نحو الواقعية ،الأمر الذي اضطره إلى سن قوانين تحكم حركة الدولة نشوؤها وانهيارها و طبيعتها وأنواعها. ويمكن تحديد الرؤية السياسية الجديدة التي جاء بها ماكيافيلي في النقاط التالية:

---

[7]–د.فيصل عباس:الموسوعة الفلسفية ،الفلسفة الحديثة عصر النهضة،ج5،مركز الشرق الأوسط الثقافي،ط1،2011،ص42.

[8]–د.د.عبد الرحمن بدوي،موسوعة الفلسفة ،ج2،المؤسسة العربية الدراسات والنشر بيروت،ط1،1984،ص463.

[9]–مصطفى النشار:أعلام الفلسفة،حياتهم ومذاهبهم، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة،ط1،2011،ص184.

المنارة للاستشارات
ww

(أ)ضرورة خضوع الدين والأخلاق لمعايير السلطة السياسية.

(ب) يجب أن تتأسس الممارسة السياسية على المصلحة والاعتبار للخير والفضيلة فيه.

(ج) المكر والدهاء والحرب والحظ والقوة هي أدوات الحاكم في السيطرة على مجتمعه والتعامل مع الدول الأخرى .

وعليه فالمصلحة والقوة والعلمانية هي المعايير الجديدة التي تؤطر حداثة مكيافيلي السياسية بحكم القطيعة الابستمولوجية التي أحدثها مع الفكر اللاهوتي الوسيط.

وعليه فقد استبدل المدنية الطوباوية (مدينة الله)بمدينة جمهورية القوة وهكذا فقد استحدث مكيافيلي ثلاث صفات للسياسة:

(أ)فصلها عن أي معيار خارج عن الطبيعة المصلحية والقوية.

(ب)فضلا عن استقلالها عن تلك المعايير الخارجية.

(ج)أولويتها على كل المجالات الاجتماعية الأخرى.

"إن الدلالة البالغة في فكر مكيافيلي هو أنه أقحم سياسة القوة في نظام الكون الأخلاقي فنسق مكيافيلي الأخلاقي الوثني الجديد لم يجعل القوة والخديعة أمرين مقبولين وحسب بل جعلهما ضروريين للحكام الذين يخدمون الدولة (...)فقد أشار بعض المؤرخين إلى فكرة حق الدولة الذي يبدأ بمكيافيلي، لقد كان هذا شيئا جديدا ووحشيا مخيفا فالفكرة القائلة بأن الدولة تستطيع أن تفعل أي شيء للحفاظ على وجودها(...)أمر بالغ الخطورة باعتبارها دفاعا عن الطغيان وانتهاكا للعدالة الإنسانية."[10]

يبدوا واضحا أن "مكيافيلي" أسس مشروعه السياسي على أساس دولة لا تستمد مشروعيتها إلا من ذاتها ويكون بذلك قد وضع أول بنية من بنيات الدولة القومية والوطنية.

قائمة المصادروالمراجع

1- مصطفى النشار:أعلام الفلسفة،حياتهم ومذاهبهم،دارالميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1،2011،ص186.

2- د.فيصل عباس:الموسوعة الفلسفية ،الفلسفة الحديثة عصر النهضة،ج5،مركز الشرق الأوسط الثقافي،ط1،2011،ص41.

[10]–د.فيصل عباس:الموسوعة الفلسفية ،الفلسفة الحديثة عصر النهضة،ج5،مركز الشرق الأوسط الثقافي،ط1،2011،ص42.

المنارة للاستشارات

ww

3- مصطفى النشار:أعلام الفلسفة،حياتهم ومذاهبهم، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة،ط1،2011،ص185.

4- مصطفى النشار:أعلام الفلسفة،حياتهم ومذاهبهم، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة،ط1،2011،ص188.

5- جان توشار:تاريخ الأفكار السياسية(من عصر النهضة إلى عصر الأنوار)ج2،ت،نادي الدراوشة،دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر،ط1،2010،ص354.

6- د.عبد الرحمن بدوي،موسوعة الفلسفة ،ج2،المؤسسة العربية الدراسات والنشر بيروت،ط1،1984،ص466.

7- د.فيصل عباس:الموسوعة الفلسفية ،الفلسفة الحديثة عصر النهضة،ج5،مركز الشرق الأوسط الثقافي،ط1،2011،ص42.

8- د.د.عبد الرحمن بدوي،موسوعة الفلسفة ،ج2،المؤسسة العربية الدراسات والنشر بيروت،ط1،1984،ص463.

9- مصطفى النشار:أعلام الفلسفة،حياتهم ومذاهبهم، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة،ط1،2011،ص184.

10- د.فيصل عباس:الموسوعة الفلسفية ،الفلسفة الحديثة عصر النهضة،ج5،مركز الشرق الأوسط الثقافي،ط1،2011،ص42.

المنارة للاستشارات

ww